المنهجية في العلوم الاجتماعية

دانيال برتو

١ – المنهجية، الابستمولوجيا[1] : تعريفها بالنسبة للنظرية وللملاحظة ولممارسة البحث.

المنهجية. ما هي المنهجية بالنسبة الى النظرية (السوسيولوجية) من جهة، وبالنسبة الى تقنيات الملاحظة الامبيريقية (التجريبية) من جهة أخرى؟

المنهجية هي على وجه الدقة ما يصل بين النظرية وتقنيات الملاحظة، بين تقنيات الملاحظة والنظرية.

أ – ان تعبير «تقنيات الملاحظة التجريبية» هو حشو بالبداهة، لأنه يتضمن تكراراً: ان الملاحظة هي دائما تجريبية (أو «ملموسة»، كتعبير مرادف)، فليس هناك ملاحظة مجردة. لذلك، سنتحدّث فيما بعد عن «تقنيات الملاحظة» فقط، ونقصد **بذلك**: الاستمارة، مختلف انماط المقابلات، الملاحظة المباشرة، سواء أكانت بالمشاركة أم لم تكن الخ.. بالاضافة الى تقنيات الملاحظة التي لم يتم ايجادها بعد..

ب – هناك تقنيات اخرى غير تقنيات الملاحظة هي تقنيات «معالجة المعطيات» كالتحليل المتعدد المتغيّرات، والتحليل العاملي، وتحليل المحتوى، الخ... وهي في الواقع ترتبط ارتباطا وثيقا بنمط المعطيات التجريبية التي نمتلكها: فاذا اخترنا استعمال الاستمارة المغلقة[2] فاننا نضطر لمعالجة معطياتها في جداول متعامدة او بواسطة التحليل المتعدد المتغيرات (اي بواسطة الجداول التي تتضمن اكثر من متغيرين). واذا اخترنا الاسئلة المفتوحة، أو اجراء مقابلات موجهة او نصف موجهة، نصبح مرغمين على استعمال تحليل المحتوى للمعطيات. واذا انطلقنا من الاحصاءات الحكومية، كمعطيات تجريبية قاعدية، نعود الى التحليل للجداول المتعامدة. اما اذا رغبنا في دراسة ظاهرة ما من خلال الصحافة فنعود الى تقنية تحليل المحتوى، وهكذا...

في الواقع، ترتبط تقنيات تحليل (أو معالجة) المعطيات بصورة مباشرة بتقنيات الملاحظة، اذن ان اختيار تقنيات

الملاحظة تعتبر مسألة اساسية. فكيف نقوم بهذا الاختيار، وعلى اساس أية معايير، وما هي الاستراتيجية التي يجب اتباعها؟ هذه هي الأسئلة التي ينبغي على المنهجية الصحيحة ان تطرحها.

ج – النظرية هي نتيجة، شأنها شأن المعطيات. النظرية هي نتيجة للممارسة النظرية (التفكير، القطع، بناء المفاهيم الجديدة، الفرضيات الجديدة، الخ)، والمعطيات هي نتائج للملاحظة، اي للممارسة التجريبية.

٢ – اتجاه تغليب التجريب، اتجاه تغليب النظرية والموقف المثمر علمياً

ينبغي الانطلاق من فكرة مركزية مؤداها ان التفكير النظري والملاحظة هنا برهتان من السيرورة نفسها، سيرورة البحث عن الحقيقة. وهما متلاحمان، اردنا ذلك ام لا.

وهكذا، لا نستطيع ان نقوم بملاحظة (تجريبية) جيدة، ما لم نطرح على انفسنا اسئلة «نظرية» بصورة مستمرة، كما أننا لا نستطيع التوصل الى نظرية جيدة ما لم نستند الى الملموس، اي الى ملاحظات تجريبية.

ان ما نؤكده هنا بصورة واضحة يحتاج طبعاً الى اثبات: فلا يكفي التأكد ليصبح ما نقوله صحيحاً. والاثبات مطروح في كتاب «مهنة عالم الاجتماع»[٣].

لنفترض ان مختلف اتجاهات الباحثين تتلخص بثلاثة:

- الاتجاه العلمي الصحيح (ينبغي تحديده).
- الاتجاه التجريبي (المغالي في اعتماده على التجربة)،
- الاتجاه النظري (المغالي في تغليب النظرية).

الاتجاه «التجريبي» أو «الايجابي» هو الذي يعتمده باحث ينطلق من المنطق التالي:

«أنا اريد اولاً ان ارى كيف تحصل الاشياء، دون الانطلاق مسبقاً من نظرية. فيما بعد فقط افكر واتبصر بمعطياتي». «النظريون يفكرون في الفراغ». ان هذا الاتجاه منتشر جداً. وقد اتخذه علماء الاجتماع الاميركيون منذ (١٩٤٥). ولكن، اذا قارنا بين المبالغ المالية الكبيرة التي انفقت على الابحاث الميدانية، وبين النتائج (من اجل فهم المجتمع الاميركي)، نجد ان هذه الاخيرة بالغة الهزال. فلا يبدو ان هذا الاتجاه مثمر، ولكن ينبغي معرفة لماذا.

التفسير الذي يقترحه عالم الاجتماع الاميركي (النقدي) رايت ميلز (Wright Mills)[٤] يلتقي بالأفكار الابستمولوجية لباشلار حول الممارسة العلمية في ميادين العلوم بشكل عام. لقد قام بورديو (Bourdieu) وآخرون بتوليف هذين الاتجاهين في التفكير (اللذين يجهل واحدهما الآخر)، وقالوا: «ليس صحيحاً ان الباحث التجريبي لا يصيغ نظرية. فالفرد عنده دائماً افكار محددة عن الواقع، عمّا هو مهم وما هو غير مهم، الخ. فرأسه ليس فارغاً. بل على العكس، انه ممتلىء بالأفكار المغلوطة عن الواقع، وافكارنا، أكانت صحيحة أم مغلوطة، توجّه شكل ملاحظاتنا للواقع.

ولكن الباحث التجريبي المحض لا يعي افكاره المغلوطة (افتراضاته المسبقة، مفاهيمه القبلية، مفاهيمه

الايديولوجية، المترادفات) التي يملكها عن الواقع. أذن تكون ممارسةً للملاحظة موجهةً دون ان يدري. فهي ليست حيادية: ان مساحة الواقع بالغة التعقيد، ولا يمكن وصفها أو تناولها بالكامل لذلك نختار دائماً ملاحظة هذا الجانب منها، او ذاك عندئذ يصبح من الافضل ان نختار استناداً الى اسئلة او تساؤلات نظرية (سبق ان فكّرنا بها، او ناقشناها) على ان ننطلق استنادا من «مفاهيمنا القبلية اللاواعية».

هذه الحجة معروضة في كتابات ديركايم[٥] وكذلك عند لازارسفيلد[٦] وفي مجمل كتاب مهنة عالم الاجتماع، وتؤدي للاستنتاج التالي: ليس هناك تجريبية «محضة». فالباحث يلتزم دائماً «نظرية» ما، عن الاجتماعي خلال ممارسته للبحث. فاذا لم يُصرّح عن هذه النظرية، او لم تكن مشغولة، الخ (كما هي الحال مع الباحث التجريبي). فانها تكون نظرية سيّئة. فمن الاحسن ان يُجرب العمل انطلاقاً من نظرية تكون جيدة قدر المستطاع. وهذا الامر مهم جداً لأن نوعية المعطيات التي تجمع لا تتعلق بتقنيات الملاحظة فقط بل ترتبط ايضا بالبعد النظري المستعمل. على هذا الأساس، يمكن ان نفكر بان فشل علم الاجتماع التجريبي الاميركي ناتج عن نظرية لا واعية وغير سوسيولوجية للمجتمع، لها طابع يسميه المؤلف (Psychosociologisante).

ينطلق هؤلاء الباحثون من تصورات للمجتمع تعتبر انّه مجموعة من «الافراد» وأن لكل منهم «دوافعه» الخاصة. فلا يفكرون بملاحظة «العلاقات الضرورية، الموضوعية، المبنية» التي تشكّل لحمة الحياة الاجتماعية. ومن المستحيل تناول نتائجهم التجريبية بالتحليل دون الوصول الى الاستنتاج المشار اليه: ذلك ان المعطيات المتعلقة بوضعية الافراد الموضوعية مفقودة، ولا ذكر لها الى جانب الوصف الغني «لمواقف» و «آراء» و «دوافع» هؤلاء الافراد انفسهم.

وبالنتيجة، فان الموقف التجريبي لا يتصف بغياب النظرية بل بوجود نظرية ضمنية باطلة، وايديولوجية، تحوّر النتائج التجريبية ذاتها. وهكذا فان التجريبية نفسها تصبح مشوهة. فهل ينبغي، الى هذا الحد، الالتجاء الكامل الى النظرية؟ بالطبع لا، والاّ نقع في الموقف النظرياتي[٧] (théoricisme) الذي يميل اليه علماء الاجتماع الاوروبيون. وهو ليس افضل. فلقد انتقده الايجابيون بشدة، بدءاً من اوغست كونت (Comte) والنقد الذي وجهه رايت ميلز، في كتابه «المخيلة السوسيولوجية»[٨] يعتبر من بين افضل الانتقادات بهذا الخصوص.

٣ - الابستمولوجيا كتفكير نقدي لممارسات الباحثين. المنهجية كدراسة «للمنحى» العلمي او الاتجاه المثمر بالنسبة للممارسة العلمية.

اذا كنا نفهم كل ما يجري في «العالم الاجتماعي» فلن نكون بحاجة الى «العلوم الاجتماعية»: فكل واحد يضع تحليله السوسيولوجي الخاص. في الواقع، ان كل انسان يفعل ذلك يومياً، ولكن ليس هناك تحليلان متشابهان ان واقع هذه الملاحظات ينبغي ان يكفي لاقناعنا بان «العالم الاجتماعي ليس شفافاً»، وباننا لا نعرف محدِّداته (ميكانيزمات السببية)، ولا حتى، الظواهر التي تطفو على السطح، في اكثر الاحيان.

رؤوسنا اذن مليئة بالأفكار غير الصحيحة. والسؤال الذي يطرح عندئذ هو: ما هو الاتجاه الذي ينبغي اتخاذه كي

نقترب من الحقيقة؟ على هذا السؤال تحاول المنهجية وكذلك الابستمولوجيا ان تجيبا: في كل مرحلة من مراحل تقدم علم ما (او حتى تراجعه، لم لا)، ينسحب بعض الباحثين من السيرورة المباشرة للبحث ويحاولون التفكير حول الماضي: ما هي الطرق التي نجحت؟ وتلك التي فشلت؟ وما هي مظاهر الواقع التي تسمح لنا الوسائلُ الراهنة للملاحظة، أي تقنيات جمع المعطيات المتوافرة حالياً، برؤيتها. وما هي المظاهر التي لا يمكن لهذه الوسائل الاّ ان تشوهها او أن تمر عليها بصمت؟ كيف تقدمت النظرية؟ وما هي الظروف، لا سيما الظروف الملائمة، التي كانت تسود عند التوصل الى اكتشافات مفيدة؟ الخ...

حين يفكر «المنهجي» او «الناقد المعرفي» فهو لا يفكر «في المجرّد»، بالعكس، انه ينطلق من الممارسة الفعلية للباحثين، ويجرب ان يفهم الاولويات التي تبقى مستورة غالباً بالنسبة للباحثين الملتزمين، الغارقين حتى اعناقهم في ممارسات خاصة.

اذن، العلوم الاجتماعية ما زالت في بداياتها. لذلك اصبح اتخاذ موقف (علمي) صحيح ضرورياً، قبل اي شيء آخر (وتكفي المباشرة بالخطوات الاولى في الاتجاه الصحيح، والبقية ستأتي حتماً) وفي الوقت نفسه، تنقصنا الخبرة الضرورية لممارسة التفكير الابستمولوجي السليم. ومع كل ذلك، هناك بعض المكتسبات. ففي الاقتصاد، على وجه الخصوص، يصبح التفكير النقدي المعرفي ممكناً (ولكنه يُحدث تخريباً في النظريات الاقتصادية الحالية، لا سيما في نظرية الحدية الجديدة). اما في مجال علم الاجتماع فان المكتسبات محدودة. فبين الايادي مؤلفات «الكبار»: ماركس، ديركايم، فيبر، ويضيف اليهم ريمون آرون: مونتسكيو، توكوفيل، اوغست كونت، وبارتو ويمكن ان نضيف اليهم ايضاً ابن خلدون، ليفي ستراوس، جورج ميد، وكذلك برسون وحتى رايت ميلز.

ما هي المنهجية؟

تعلُّم المنهجية يعني تعلم ربط الممارسة النظرية بالممارسة التجريبية، اللتين يجب أن تكونا «برهتين» لا يمكن فصم عراهما من السيرورة نفسها، سيرورة البحث عن الحقيقة. وحين نشدد على احدى هاتين البرهتين نقع إما في نزعة تغليب التنظير (théoriciste) أو في النزعة الامبريقية، تغليب التجريب (empirisme) ان الممارسة الحقيقية للباحثين، أكانوا يتشدَّدون في مواقفهم بجانب النظرية أم بجانب التجريب تكشف بوضوح الواقع التالي: انه من المستحيل استقلالية احدى هاتين البرهتين عن الأخرى. وهكذا عندما نعطي النظرية امتيازاً على التجريب نكون على اعتقاد بامكانية تطويرها دون العودة الى المعطيات الملموسة ولكن في الواقع نكون عندئذ منقادين للعودة باستمرار وبصورة لا واعية، إلى تجربتنا الخاصة التي تعتبر الشكل الأكثر بدئية للمعرفة الملموسة للواقع. فنكون قد صنعنا عندئذ تجريبا باطلاً. وعلى اساس هذه الممارسة نركز النظرية وينتهي بنا الامر إلى أن نأخذ صياغة مفاهيمنا وأحكامنا المسبقة اللاواعية على أنها «نظرية».

ويبقى هذا التحليل صحيحاً بالنسبة للنزوع نحو التجريب. هناك اذن «منحى علمي. أي مسلك خاص يقضي بمعرفة تدميج الممارسة النظرية مع الممارسة التجريبية، يعتبر الاكثر اثماراً في سبيل تقدم المعرفة. فلماذا يكون من الصعوبة

اذن اكتشاف هذا المنحى؟ وما هي العوائق الحقيقية التي تعترض وضعه موضع التنفيذ؟ ينبغي الكشف عن هذه المعيقات انطلاقا من دراسة تاريخ تطور العلوم. فالابستمولوجيون المعرفيون يدرسون هذا التطور بصورة نقدية ويبذلون الجهد ليبرزوا العوائق (الاجتماعية والذاتية) التي تعيق تقدم المعرفة ومصادر الأغلاط والأفكار الخاطئة.

فانطلاقاً من هذا التحليل، يجهد المنهجيون في سبيل التوصل الى طريقة تنبع من طبيعة دراساتهم الخاصة للتخلص من تلك المعيقات ولاكتساب «المنحى» العلمي بشكل ملموس. في الواقع يجب على كل باحث ان يكون المنهجي (Méthodologue) لنفسه بنفسه[٩]، ومع ذلك لا يحل اكتساب «المنحى» العلمي، الذي حددناه سابقاً، محل اكتساب ومعرفة التقنيات القاعدية (تقنيات المراقبة، وتقنيات تحليل المعطيات). ان «المنحى» العلمي يسمح بالسيطرة على التقنيات عوضاً عن ان يكون مسيطراً عليه من قبلها.

٤ – نظرة نقدية للمفاهيم السائدة

لقد آن الأوان لاجراء مراجعة نقدية للتعابير التي نستعملها كمسلمات مثل «نظرية» و«مراقبة»، فالأمر لا يتعلق باعطائها تعريفات شكلية (مثلاً: النظرية= نظمة من المفاهيم والفرضيات)، ولكنْ تلّمس الدور الذي تلعبه في العالم. قبل كل شيء، ما هي المعرفة العلمية اذا استندنا على الاختيار في العلوم الفيزيائية؟ نجد ان العلم ليس معرفة «جوهر» او «الطبيعة العميقة» لها، ولكنه مجمل المحدَّدات التي تُحدث «الحركة العامة للعالم»، تلك التي نشعر بها من خلال تبدِّيها كظاهرات ملموسة.

فالعلم هو اذن دراسة المحددات والنظرية هي طريقة للتعبير اللفظي عما يعتقد انها محددات تحدث نوعاً معيناً من الظواهر. فكل نظرية هي عبارة عن توفيقة من **المفاهيم والعلاقات** بين المفاهيم. ولكن صحة نظرية معينة لا تثبت الا اذا كانت العلاقات المقدمة كفرضيات، تتطابق جيداً مع **العلاقات الحقيقية، المحدِّدَة**.

ان تشبيه «العالم الاجتماعي» قياساً على «العالم الفيزيائي» ينبغي ان يُنتَقَد: فمهما كان هذا القياس مثمراً، لانه يسمح بالتعرف على المحددات المؤثرة في العالم الاجتماعي، فهو يصبح باطلاً اذا طُبق بصورة ميكانيكية. ففي الواقع، لم يتم حتى الآن توضيع الفروق في «الجوهر» أو حتى، في بنية المحدِّدات الفاعلة، في كل من العالم الاجتماعي والعالم الفيزيائي بصورة مرضية، ويجب اعتبار الملاحظات المتعلقة بهذه النقطة عبارة عن تجربة ينبغي تطويرها وتجاوزها.

الموقف الامبيريقي (المُغلَّب للاتجاه التجريبي) يؤدي الى التسليم الغباوي بالمحتملات (Probabilités) فهو يستند على الخلط بين مستوى الملموس، حيث العلاقات احتمالية، لأنه تمارس فيه محدِّدات متعددة، وبين مستوى المحدِّدات، حيث العلاقات ضرورية وتأخذ طابع الحتمية. على هذا الاساس يظن ان المحدِّدات.. تكون احتمالية، وهذا تناقض في التعبير، يقود في الواقع الى اهمال البحث عن التفسير الكامل للظواهر.

من هذه الزاوية، ينبغي معرفة ما ادخله لازارسفيلد (Lazarsfeld) من تطوير منطقي على التحليل المتعدد المتغيرات (L'analyse multivariee) بعد ان تمت السيطرة عليها وامتُلكت حالياً أي ادخلت

في المنظور المعرفي (La perspective epistemologique) واصبحت حدودها معروفة ، وبالعكس ، نملك مجموعة كبيرة من الدراسات التجريبية التي نفذها في الولايات المتحدة الاميركية علماء اجتماع اميركيون ، ولكننا لم ننجح في ان نستخلص منها توليفة Synthese نظرية سليمة.

ان الدراسات السوسيولوجية الجيدة ، هي تلك التي تتداخل فيها النظرية مع التجريب (بمعنى عرض الواقعات التجريبية) بشكل جيد. وهذه الدراسات نادرة. ومع ذلك ، يعرف كل عالم اجتماع انها نموذج يحتذى. ولكن وجود معوقات حقيقية تمنعه من تبنيها. هذه المعوقات ، تضم في الوقت نفسه ، معوقات «موضوعية» (فقدان المعطيات ، والاعتمادات اللازمة لتنفيذ الدراسات الميدانية ، او بالعكس ، عدم توفر الوقت والكتب للتفكير، وكذلك التنظيم البيروقراطي لعمل الابحاث ، وتوجيهها عن طريق مؤسسات الدولة التي تمولها ، لايجاد حلول قصيرة المدى «للمشكلات الاجتماعية».

بالاضافة الى المعوقات «الذاتية» : لا نعرف بشكل واضح ماذا ينبغي فعله ، عملياً ، كي نتبنى هذا الاتجاه في تدميج النظرية مع الممارسة التجريبية.

وهنا ايضاً يوجد التباس. فالاتجاه السائد هو انتظار «المنهجية» كي تعيِّن بدقَّة لوائح الافعال الملموسة الواجب تنفيذها حتى «يتحقق» الموقف العلمي. ولكن واقع الحال ليس هكذا. ففي الواقع : ان الوضعيات الملموسة التي يتواجد فيها الباحثون هي اكثر من ان تحصى وبالتالي شبه مستحيل التنبؤ بها جميعها ، وتحديد «السلوك الجيد» علمياً في كل حالة. وبالعكس حين يتعلم الباحث ويكتسب «المنحى العلمي» ، اي الموقف العلمي ، بالاضافة الى المامه باستعمال التقنيات الراهنة ، يصبح بمقدوره تحديد السلوك الملائم لكل وضعية ملموسة (أو تصحيح سلوكه الخاطىء مباشرة عند الوقوع فيه). المنهجية ينبغي ان تبذل الجهد لتعليم «المنحى» او الموقف العملي بنزاهة.

ان اعطاء تعلم اللغة الاجنبية كمثل يمكن ان يوضح هذه النقطة،لنفترض انه يتوجَّب عليك القيام بزيارة ، بعد شهر من الآن الى بلد لا تتقن لغته ، مثلا هولندا. في هذه الحالة يمكنك ان تتنبأ بكل الوضعيات الفعلية التي يمكن ان تصادفها ، فتحفظ عن ظهر قلب الجمل الهولندية المطلوبة : هذا هو مبدأ «كتب المحادثة واللغة السائدة» التي تعطي لوائح من الجمل. ويمكنك ايضاً تعلم مبادىء اللغة الهولندية : كيف تبني الجملة ، التراكيب المستعملة (اي تعلّم شيء من القواعد)، بالاضافة الى المفردات الاساسية. فانطلاقاً من معرفة هذه المبادىء ، يمكنك فيما بعد ان تولِّد عدداً لا يحصى من الجمل المناسبة المتعلقة بوضعيات فعلية لا تحصى هي الأخرى. انها مقاربة اخرى فعاليتها[٩] اكبر بكثير.

ان هذا المثل يعطينا فكرة اضافية ، يمكن ان تكون صحيحة : ان الذي يستعمل في هولندا لائحة الجمل الجاهزة ، عاجز عن فهم ما يتجاوز حدود هذه اللائحة. فاذا خرج عنها فانه يغرق. اما الآخر فيستطيع ان يفك رموز عدد اكبر من الجمل وان يفهمها ، وان يردم ثغرات مفرداته حسب الحالة. وعلى عكس الأول ، انه في وضعية تسمح له بالتقدم. أليس هذا هو حال الباحث؟ وبتعبير آخر : هل يستطيع الباحثُ ، الذي لا يمتلك سوى الوصفات

المنهجية الجاهزة، التعرف على الوضعيات الراهنة التي يتواجد فيها، لا سيما اذا طرت تغيرات طفيفة على الظروف الاساسية التي اعدت فيها تلك الوصفات، بحيث يظهر بعض الفروقات بين الوضعية الحالية ووضعية الاساس المنمطة التي لا يقدر التعرف على سواها؟ وهل سيحسن التكيف مع الوضعيات الفعلية التي يصادفها و يقدم الدليل على خياله ومبادرته، اذا سبق ان تعلّم أن البحث يقوم على تطبيق وصفات ميكانيكية؟ ان اقتصار التعلم على تعلم «الحيل التقنية» امر يُبرر في ميادين العلوم الصحيحة حيث «وضعيات البحث» مقنّنة، لأننا نعرف بدقة على ماذا نبحث، بفضل النمو النظري الواسع لهذه العلوم. فالبحث الطبي في فرنسا، يعاني حتى اليوم من نمط تعليم يتشدّد بتقديم مثنويات عارض – علاج، حيث يرسّخ في اذهان الطلاب اتجاها يتخذ شكل فهرس للوصفات مع كل ما يستتبع ذلك من كوارث يمكن تصورها اذا ارتكبت خطأ على مستوى تحديد العوارض. ازاء هذا الموقف الميكانيكي، تتعمق فكرة «الفحوصات الاضافية»: فبعد بروز العوارض الأولى، يطلب الطبيب فحوصاً اضافية بهدف كشف وجود او غياب العوارض الأخرى لكي يُمسك بمختلف الاحتمالات ويتوصل الى تشخيص مؤكد من معظم الجوانب.

ان التشبيه بعمل الطبيب ليس صائباً تماما، فهو لا يفيد هنا سوى التدليل على الموقف غير الميكانيكي اساساً، المستوعب لكل علامات الواقع الملموس، الذي ينبغي امتلاكه من قبل الباحث الممارس في ميادين العلوم الضئيلة النمو، كما هو حال العلوم الاجتماعية عموماً، وعلم الاجتماع على وجه الخصوص.

ولكن كل هذا لا يحدد لنا حتى الآن اية طريق ينبغي اتباعها لترك موقفنا الحالي، المليء بالأفكار المغلوطة واتخاذ الموقف العلمي. ولأجل تحديد هذا الطريق ينبغي تحديد الموقفين، واحدهما بالنسبة للآخر: هذا السلوك سيظهر أين تكمن مواصفات الاختلاف، وسيحدد في الوقت نفسه وسائل الانتقال من الموقف الاول إلى الموقف الثاني.

هنا سوف تكون المقارنة مع علوم العالم الفيزيائي مفيدة جداً، لأنه في هذه العلوم (الفيزياء، الكيمياء الجيولوجيا، علوم الفضاء، ... الخ) تم الانتقال الفعلي من الموقف «قبل العلمي» الى الموقف العلمي، غير قرون طويلة هذا الانجاز لم يحصل تلقائيا (نتذكر مثل العالم غاليليه Galilée): لقد توجّب على العلماء النضال على كل الجبهات، ضد المقاومات الاجتماعية وضد افكارهم الذاتية المغلوطة. ولكن نجاحهم النهائي كان باهراً فاليوم يُقرّ دون عناء بوجود حقيقة علمية، أي معرفة علمية للعالم[١٠] ينبغي إذن رؤية ما انتهى إليه العلم في تصوره العالم، وبنية هذا العالم.

الظواهر والمحددات

يشدد جميع علماء الاجتماع والاقتصاد والتحليل النفسي والديموغرافيين.. الخ. والاختصاصيين في العلوم الاجتماعية بوجه عام، على مبدأ الحتمية (عد الى كتابات دير كايم، كلود برنارد، ماركس وبورديو المثبتة في المراجع المختلفة وفي كتاب مهنة عالم الاجتماع بالتحديد).

هذا المبدأ اصبح اليوم امراً مسلماً به في العلوم الفيزيائية وفي البيولوجيا (ولكن ذلك لم يحصل دون النضال ضد الافكار الاحيائية[١١] Animistes القديمة) ولم يصل بعد الى هذه المرتبة بالنسبة الى العالم الاجتماعي.

فهو من جهة يواجه بالتصورات «التقليدية» لعالم الاجتماع (monde social) المحدد والمحكوم من قبل قوى غيبية لا تتغير. ولكن هذه التصورات فقدت من فعاليتها في البلاد التي نمت فيها الرأسمالية. فالرأسمالية تفرز ايديولوجيتها الذاتية، وعلى وجه التحديد تصورها الخاص للمجتمع؛ فالمجتمع بنظرها هو عبارة عن جمع لافراد أحرار، لا يعانون من اية ضغوط بنيوية، يتصرفون تحت تأثير «دوافعهم» الداخلية. هذا التصور يشكل الاساس الضمني لعلم الاجتماع، وعلم النفس – الاجتماعي ولعلم الاقتصاد في اميركا الشمالية. وهو يسمح بالتوصل الى بعض المعارف «البرغماتية»: صحيح ان كثيراً من الناس يتصرفون بوحي من دوافعهم، خصوصا افراد الطبقتين الوسطى والعليا في الولايات المتحدة الاميركية.. ولكن في الطبقات والبلاد الاخرى، تفرض **الحاجة** نفسها بصورة اكثر الحاحاً.

ومن **جهة اخرى**: من أين هذه «الدوافع»؟ هذا ما ينبغي تفسيره.

يواجه هذا التصور «الفرداني» (individualisante) تصوُّر آخر للظواهر الاجتماعية يعتبرها نتاجاً للعلاقات الضرورية، **البنيوية**، للمحددات المستقلة عن «ارادة» البشر (مثلاً حالات الازمات والحروب). لقد دافع جميع المؤسسين الكبار للعلوم الاجتماعية عن هذا التصور، امثال ادام سميث، ريكاردو او ماركس في الاقتصاد، ودير كايم وفيبير وبرسون في علم الاجتماع (فالاكراهات « contraintes » التي تحدث عنها دير كايم يدعوها برسون «معايير» normes)، بالأضافة الى المدرسة البنيوية الحالية (ليفي ستراوس، ألتوسير، لاكان، برديو، الخ..).

ويلتقي هذا التصور مع ذلك الذي اثبت جدارته في العلوم الفيزيائية والبيولوجية ومن الممكن، ان لا يشكل سوى مرحلة ضرورية، هي **مرحلة البنيوية**، وان تكون في عالم الاجتماع «أشياء اضافية» اكثر من صراع الطبقات (والأمم) الذي يبدو مخرجه غير محدَّد منذ البداية. ولكن في كل الاحوال، ونظراً لكون الافكار الخاطئة (المجتمع هو جمع أفراد) هي الاكثر انتشاراً، فان الوصول إلى المرحلة البنيوية يصبح اكثر الحاحاً.

إنبناء العالم

- التمييز الاساسي ما بين: **ظواهر ومحدّدات**.
- مرادفات لمفهوم «الظواهر»: **الملموس**، **الممكن ملاحظته**، **الخاضع للتجريب**، **المظاهر** الخارجية... الخ.
- مرادفات لمفهوم «المحددات»: **الحتميات**، **الأسباب**، **العلاقات**، **الارتباطات**، **الاكراه**. **القوانين** (العلوم الفيزيائية)... الخ.

ان كل ظاهرة هي محصلة لكل المحدّدات.

يقول ماركس: «ان الملموس هو ملموس لأنه توليفة (synthése) لمحددات عديدة، إذن إنه توحُّد المتنوعات (unité de la diversité) ويقول الانتروبولوجيون نفس الشيء، وبالتحديد مارسل

موس (Mauss) الذي يتحدث عن «الظاهرة الاجتماعية الكلية».

– وهكذا نجد الظاهرة المحسوسة (أكانت فيزيائية أم اجتماعية) عبارة عن الحصيلة المضمرة لتقاطع كل المحددات، وبالمقابل ينبغي أن نتمكن من ملاحظة هذه الحصيلة (وهمياً) في أية نقطة من المحسوس concret.

(نقول وهميا لأنه في الواقع لا نستطيع ان نراقب سوى ما **يتغيّر**، نراقب دائماً نقاطاً متعدّدة من المحسوس، فإذا كانت محددة ما ثابتةً في كل هذه النقاط فاننا لا نستطيع ان نراقبها. مثلا انه لا يخطر على بالنا ان نعتبر بعض الظواهر الاجتماعية (السلام) التي تعيشها اوروبا حالياً«كسبب». فبالنسبة للأوروبيين اصبح السلام حالة عادية. ولكن عندما تتغير هذه الحالة من حالة السلام الى حالة الحرب، يتغير كل شيء لأن السائد المستمر والثابت هو حالة السلام).

– المحسوس/المجرد، الوصف/التفسير؛ الواقع : تحديدات.

– في الاطار المفاهيمي الذي نعرضه هنا، «المجرد» يعني «المحسوس»، اي كل ما ينتمي اليه مستوى المحددات. اما«**الوصف**» فيعني اعطاء تصور (عقلي) للظواهر، للمحسوس عن طريق : **Sociographie**، **Monographie**، **Géographie**، **Photographie**، **Demographie**

– **التفسير** اي توضيح اسباب الظواهر (اقتراح تصور عقلي للمحددات وهو ما يمكن تسميته بالنظرية. ملاحظة : ان كل تفسير في الوضع الراهن لعلم الاجتماع هو تفسير خاطىء بالتأكيد أو على الأقل بعيد عن الحقيقة).

– **الوصف و التفسير**: انهما ثنائية جدلية. من المستحيل مطلقاً أن نصف بصورة «حيادية». ففي الواقع : ما هو محسوس متنوع الى درجة كبيرة. وعندما يراد بناؤه وتقديمه على شكل معلومات (كلام ، احصاءات أو رسوم) نكون مجبرين على القيام بخيارات. نختار «ما هو مهم» **أي ضمنا، ما يظن انه يحدد** (فكر بهذا الصدد بمثل عالم الاجتماع الاميركي الذي وصف قرية في صقلية ونسي ان يتناول موضوع توزيع المياه فيها). نلتزم اذن بنظرية ضمنية عندما نمارس تجريباً ما. من هنا تنتج احتمالات خطأ عديدة. والحل : التصريح بالنظرية (العفوية أو الضمنية) التي نملكها، واخضاعها للمناقشة.

وعلى العكس، هل نستطيع التفسير دون الاعتماد على الوصف؟ الوصف، يعني وصف شيء ما، قطاع ما من الواقع (الواقع = المحسوس + محدداته). اذن نحن مجبرون على اللجوء إلى محسوس خاص (التجأ ديركايم الى بلدان اوروبا في دراسته عن الانتحار، والتجأ ماركس الى انكلترا في دراسته عن رأس المال؛ بالرغم من ان كلاً منهما اراد الوصول الى **نظرية عامة**، يكون لها بعدٌ عالمي، أو على الاقل ضمن شروط محددة بشكل واسع). فمن المستحيل (حسب نمط تصورنا) الفصل كليا ما بين الوصف والتفسير، لأنه :

– إما ان تكون لغتنا غير مكتملة

– وإما على الارجح ليس هنالك في الواقع فصل جذري بين الظواهر وبين المحددات.

إن الاخذ بالأفتراض الثاني يوصلنا إلى :

- اعطاء الطابع لثنائية ظواهر/محددات عن طريق إدخال مستويات عديدة من المحددات.
- التساؤل عما يميّز (بالنسبة للدماغ) الظواهر عن المحددات.

الظواهر وادراك الظواهر

الامعان الدقيق بموضوع المحسوس يظهر لنا ان هذا الموضوع ليس مفروغاً منه كما يبدو للوهلة الأولى. ان معرفة العالم الخارجي لا تتاح لأحدمنا إلا عبر وسائطه. هذه الوسائط هي بصورة اساسية تجهيزاتنا الفيزيولوجية أي اعضاء الحواس والدماغ من جهة، ووسائلنا الاجتماعية لمعرفة العالم اي اللغة من جهة أخرى.

لنأخذ اولاً المعرفة المباشرة للمحسوس. هل أستطيع أن أعرف هذا الشيء المحسوس أو ذاك بالكامل؟ (مثلاً التفاحة). هل استطيع ان امتلكها عقلياً دون ان أنسى منها شيئاً؟ كلا بكل تأكيد. إنني مضطر لاستعمال اعضاء حواسي كوسائط وهي لا تعطيني معلومات سوى عن بعض خصائص التفاحة، ولكن ليس مباشرة عن «التفاحة» باعتبارها شيئاً محسوساً.

لنأخذ حاسة النظر كمثل. في البداية لا أرى سوى جانب واحد من التفاحة دفعةً واحدة. لا أرى داخلها. استطيع ان أبرمها، ان اقطعها، ان انظر اليها؛ ينبغي ان أعيد تأليف كل هذه الصور المختلفة في رأسي، وكل ذلك لا يحصل دون الاختزال أو الوقوع في مهالك الخطأ. بالإضافة إلى ذلك كله أنا لا أدرك ما أراه من التفاحة إلاّ عبر المفاهيم العقلية عن **الاشكال والألوان**. في الواقع لا أتوصل إلى صياغة تصوراتي العقلية لما أرى الاّ بالنسبة لما سبق ان عرفت عن العالم (وجود اشياء أخرى، ثمار... الخ): فإذا ما عُرض شيء جديد عليّ كلية فإني لا اتوصل الى «رؤيته» في البداية، ولا أحفظ شيئاً منه لأنني لا أتوصل الى مقارنته بشيء اعرفه مسبقاً.

من جهة أخرى إذا حدقت بالتفاحة كثيراً ومن كل الاتجاهات فلن يكون بمقدوري ان اعرف شيئاً عن طعمها ولا عن صلابتها. ان اللمس هو الحاسة الاكثر «محسوسية»، والأقل ذهنية، وهو أول ما يستعمله الرضيع وكذلك ما يستعمله الراشدون «للتعرف» على الاشياء. وحاسّة اللمس هي الحاسة التي لا يمكن خداعها بسهولة، (بينما البصر هو حاسة تخدع ببساطة). فلن اتوصل لمعرفة صفات التفاحة المتمثلة بصلابتها ووزنها، وملمس سطحها الا بعد أخذها باليدين. وهناك مجموعة من الخصائص الاخرى التي لا يمكن ان اشعر بها مباشرة: مثلاً درجة جاذبيتها أو بثها المحتمل لاشعاعات ما تحت الحمراء أو اشعاعات (Ultra son)... فتدريجياً مع تقدم العلم بنيت ادوات جديدة لتسمح لي بمعرفة هذه الخصائص، لأن هذه الأدوات تحول هذه الصفات التي لا يمكنني ادراكها مباشرة الى صفات «مدركة» عن طريق الانتقال المشاهد للأبرة على ميناء الآلة.. الخ.

وأخيرا اذا انطلقت من صعيد المعرفة العقلية، ليست التفاحة بالنسبة لي سوى **مجموعة من الخصائص**. فلن أدرك «التفاحة» مطلقاً بشكل مباشر، لن ادركها إلا عبر حواسي المدعمة بالادوات التي تسمح لي بالتعرف عليها اي على صفاتها.

من الصحيح ان هنالك اشكالاً اخرى للمعرفة تدعّي كمال التعبير كالفن أو الدين لاسيما بأشكاله الصوفية، وهي تدعّي ايضاً الوصول الى كنه الاشياء. ان وجهات النظر هذه محترمة في ميادينها وغالباً معبّرة اكثر من وجهات النظر العلمية (ان مقارنة ما يمكن أن تزودنا به قراءة رواية جيدة وما يزودنا به كتاب سوسيولوجي حول وضعية بلدٍ ما تظهر ان معطيات الرواية هي دائماً الافضل).

ولم تستطع وجهة النظر العقلية (وجهة النظر العلمية) ان تتقدم، عندما كان التحليل يتناول «الجواهر». فبالنسبة للعلم ليست هناك «جواهر» (essences)، بل **علاقات**، وهذه العلاقات لا تقوم، تحديداً، بين الاشياء المحسوسة مباشرة، ولكن بين خصائصها. فالقوانين الفيزيائية هي علاقات بين «القوى الفيزيائية»، وهي تجسد الارتباطات الضرورية والمحددة، بين خصائص المادة.

ان الاتجاه الجوهري[١٢] الذي اتّبعه الباحثون الاوائل ما زال له أنصاره في العلوم الاجتماعية. وهكذا يتحدثون ببساطة عن «الطبيعة الانسانية»، «والعنف الطبيعي»، «والأنانية الطبيعية» أو عن «الفروقات الطبيعية بين الأفراد»، وهذا ما يفترض وجود «طبيعة خاصة بكل فرد». ويتحدثون عن خصائص وطنية (فرنسية، ألمانية، بريطانية، ..) كما لو كانت «جواهر» بينما ينبغي الكلام على «ثقافات وطنية» (إذا وُجدت) تصنع الرجال على صورتها وينبغي تفسير الموجود بينها بالاختلاف الناتج عن الفروقات في تاريخ الشعوب. تحدثنا حتى الآن عن الحدود الحصرية التي تفرضها أعضاء حواسنا على معرفتنا: هناك بعض الخصائص التي تبقى مستعصية على الكشف. فالدلتوني (Daltonien)[١٣] لا يرى لون التفاحة، قياساً على ذلك نحن دلتونيون بالنسبة لمجموعة كبيرة من الخصائص. وينبغي الحديث أيضاً عن الحدود الحصرية التي تفرضها اللغة علينا. إنه موضوع واسع، وبكلمتين نقول: تنشر كل لغة بشكل ضمني «صورة محددة عن العالم» خلال انتشارها، أي طريقة معينة لتقويم ما تصادفه في العالم، فهناك ما هو مهم وما هو غير مهم، ما هو جيد وما هو عاطل، .. الخ. وحين نقول «كل لغة» نقصد بذلك ليس فقط اللغة وحدها، ولكن ايضاً داخل اللغة نفسها نقصد اللغات المختلفة المتفرعة عنها التي تتحدث بها الطبقات الاجتماعية المختلفة، والتي تعبّر عن «الثقافة الفرعية» لهذه الطبقة أو تلك.

إذن اللغة تقطع مسبقاً المحسوسات وتجبرنا على ان ننظر إليها من خلال المظاهر والزوايا التي تسمح بها اللغة نفسها. أما الجوانب الأخرى فنحن لا نستطيع أن نفكر بها، اذن نحن لا نستطيع رؤيتها ايضاً.[١٤].

كما يوجه موقعنا الاجتماعي ادراكنا ورؤيتنا للعالم. فإذا أخذنا ما تعنيه لوحة زيتية بالنسبة لمختلف الفئات الاجتماعية كمثل فظ ولكن مفيد في الوقت نفسه، فهي بالنسبة للفنان الأصيل تعبير عن المشاعر، وبالنسبة لتاجر اللوحات هي بمثابة ربح محتمل، أما بالنسبة للمشتري الغني فهي مؤشر يوحي بالمكانة المرموقة. رغم ان هؤلاء الثلاثة «نظروا» إلى الشيء ذاته على مستوى العين فهم يفسرونه بصورة مختلفة على مستوى الدماغ، علماً بأن هذا المستوى هو المستوى الذي يعتدّ به بالنسبة لمعرفة العالم ولتحديد السلوك العملي الذي يُتّخذ.

لماذا الاستدارة الطويلة نحو الارضية المتحركة لفلسفة المعرفة؟ لأنه إنطلاقاً من هذه النقطة نستطيع إمساك احد

اشكال منبع افكارنا الخاطئة. فني الواقع بين كل «خصائص» الاشياء المحسوسة، أو بالأحرى المادة، بعضها فقط حتمي لأنه يعبّر عن محدِّدات فعلية وما تبقى هو حصيلة واما هو اسطوري (مثل روح العظماء، أو «فضيلة التنويم» التي للمخدّر):

التفكير العقلي، العلمي، لا يستوقف سوى الصفات المعبِّرة عن المحدِّدات الفعلية، فهو مثلا يتناول الوزن، الحجم، الكثافة، الحرارة،... الخ. ولكنه لا يتناول الذوق، ولا الشراهة، وبالكاد يتناول الشكل، أما القيمة الجمالية فهو بكلٍ تأكيد لا يتناولها: هذه الخصائص التي لها اهميتها بالنسبة إلينا والى ممارستنا ليست لها اية اهمية تُذكر على صعيد **المحدِّدات** التي تشكِّل بنية العالم الفيزيائي المحدّدة(La détermination). هي علاقة بين صفات المادة. والامر الصعب للوصول إلى القوانين الفيزيائية لم يكن تاريخياً ايجاد شكل العلاقة (لأنها بسيطة دائماً) بل إيجاد الخصائص التي لها علاقة بالموضوع. وهكذا في القانون الاساسي للدينامية:

القوة = الثقل × الاندفاع أو La force = Masse X acceleration

الصعوبة كانت تكمن أولا في التفكير بالاندفاع acceleration (فقبل غاليليه كان يتم التفكير بالسرعة La vitesse، فلم يتم تقدم في هذا المجال) ثم فيما بعد في التوصل إلى الثقل وهو يختلف عن مفهوم الوزن.

وفي القانون الأساسي المتعلق بالغازات الكاملة gaz parfaits:

الضغط × الحجم = الحرارة المطلقة الثابتة. Pression X Volume= température absolue Constante.

في هذا الموضوع كانت الصعوبة في التوصل الى مفهوم الضغط وكذلك في الوصول إلى فكرة قياس الحرارة ابتداء من درجة الصفر المطلق وهي (– ٣٧٢° س).

وليست المفاهيم التي تعبّر عن الخصائص الموصولة بعلاقات فعلية، وبمحددات (كمفاهيم الثقل، والاندفاع، والضغط، والحرارة المطلقة،..الخ) هي مفاهيم مسلَّم بها. وتجدر الاشارة إلى انه بين الخصائص العديدة التي اعطاها الانسان ثمة «تسميات» انطلاقاً من ممارسته الفعلية المحسوسة فلم يكن يمتلك كلمات تعبّر عن هذه الخصائص التي كانت أكثر أهمية على وجه الدقة.

هذا الامر يظهر ان العلم لا ينبني تلقائياً: وبأنه من المستحيل فهم العالم عن طريق الاكتفاء بالتفكير (لا سيّما إذا لم تتوفر المفاهيم الجيدة). وكذلك فمن المستحيل الفعل دونما تفكير، لأنه لا يمكن التوصل إلى المفاهيم إلاّ عن طريق مراقبة الظواهر الفعلية مراقبةً منهجية قدر الامكان، أي تلك التي يرشدها التفكير: وبتعبير آخر عن طريق الممارسة العلمية.

العالم الفيزيائي/ العالم الاجتماعي.

ويجدر ان ننقل التحليل الذي قدمناه عن علاقاتنا (العفوية والعلمية) بالعالم الفيزيائي، الى العالم الاجتماعي ونطبقه

عليه، ولكن من دون ان نؤكد بصورة دغماتية: «بان هكذا تجري الاشياء»، بل كتجربة. لنرَ ماذا تكون النتيجة. وهكذا فان هذا التطبيق سيعطي، تحديداً نتائج هامة جداً.

في العالم الفيزيائي رأينا ان «الأشياء المحسوسة» لم تكن في نهاية التحليل سوى اجزاء من المادة، «محكومة» بقوانين عامة وشاملة. لذلك فالنقل الجامد يؤدي بنا الى رؤية الاشخاص «كأجزاء من الانسانية» محكومين (أو منقادين) بقوانين شمولية. على ذلك، ورغم ان هذا التشبيه يبدو كاريكاتورياً (سوف نرى لماذا فيما بعد)، فان وجهة النظر التي تم التوصل اليها تبدو مثمرة للغاية، فهي تسمح بشرح الظواهر الاجتماعية الجماعية افضل من اي مداخلة اخرى.

ولكن عند تنفيذ هذا النقل بصورة مباشرة، نكون قد قفزنا فوق مستويين:

- من العالم الفيزيائي الى العالم العضوي، اي الانتقال من المادة الى الحياة.
- من العالم العضوي الى العالم الاجتماعي، اي المرور نحو الوعي، وبالتحديد خلال النمو التام للا الاجتماعية.

فبأي شيء يؤثر هذان المستويان على المبدأ الحتمي؟

يبدو انه خلال المرور من المادة الى الحياة، تظهر التيليولوجي[١٥]. Téléologie اي الافعال الهادفة، الموجّهة لتحقيق غاية. ورغم ان افعال الحيوانات تبدو كأنها هادفة (مثلا: الاسد يبحث عن غذائه)، فاننا نستطيع اعادة تفسير ذلك دون عناء، واعتبار هذا الفعل كتلبية لمحددات فاعلة (الجوع، استمرار النوع، «غرائز» البقاء واللذة، الخ.) ولكن توجد عند الحيوانات ظاهرة **التعليم** (ترسيخ التجارب السابقة في الذهن) وهي تؤدي الى تغيّر موضوعي بالنسبة الى مملكة الجماد والنبات. حتى ان سلوك حيوان معين لا يمكن التكهن به الا اذا عُرفت مجموعة المحدِّدات التي تؤثر عليه في لحظة معينة، وكذلك معرفة ماضيه التاريخي ايضاً. وبكلام آخر، يمكننا فهم ذلك دون اللجوء الى استعمال مفاهيم «كالارادة»، ولكن ينبغي علينا ادخال بُعد اضافي (بالنسبة لعالم الجماد) هو «تاريخية» الحيوانات. فاذا وضعنا هذا المظهر جانباً، فان الظواهر الرئيسية تُفسر جيداً بفعل محدِّدات «شمولية»، طبيعتها جيوفيزيائية وبيولوجية: هكذا يُفسَّر تطور الاجناس، وكذلك تفسر الظواهر الايكولوجية (اي المتعلقة بالعلاقة بين الحيوانات ومحيطها)، بالاضافة الى ظواهر عجيبة كالانتحار الجماعي للآموس[١٦] Lemming أو تلقح سمك السلمون في كل بحار الكرة الأرضية تحت جليد القطب، ستفسر كلها يوماً ما، دون ان تكون هناك حاجة لاستدعاء «الغرائز» (اي ما يقابل في البيولوجيا مفهوم الطبيعة الانسانية»).

فضلاً عن ذلك، تذكرنا هذه الظواهر بان وجود الحيوانات هو في الغالب وجود **اجتماعي**: وجود قطيعي، كسِرب من السمك، اوكقطعان من الابل، مع وجودِ فروقات واضحة من حيث العمر، والجنس، وكذلك الوجود المتمايز اجتماعياً بالنسبة للاجناس المدهشة من النحل، والنمل ودود الارض (وهي تشكل النماذج الاولى للمجتمعات المتمايزة التي اوجدها تطور الاجناس الذي نعتبر نماذجه الثانية، التي لم تنجح كلياً هي ايضاً). في هذه الاجناس، تمر المحدِّدات الاساسية البيولوجية الطبيعية (استمرار الجنس، استمرار كل فرد في الجنس) باشكال اجتماعية: ان «إشباع

هذه الحاجات» لا يمكن ان يتم الاّ في المجتمع ، وهذا بدوره متمايز حسب مهمات الانتاج ، والدفاع ، والتكاثر ، حيث كل عضو، ذكر ام انثى ، له دور عليه ان يلعبه (يتغير مع مسير الحياة).

ويُدّعى ، احياناً ، ان ما يميز الجنس الانساني عن الاجناس الحيوانية ، هو الوعي . ويقال احيانا ايضاً ، وهذا هو الاهم ، انه الاستعمال المنظم لوسائل وادوات الانتاج.

الواقعة الاساسية والدائمة هي ان محيط الانسان ليس الوسط الطبيعي . انه (بصورة مضطردة) وسط «اصطناعي» أوجده عمل الجنس البشري خلال آلاف السنين (وخصوصاً خلال المئة والخمسين سنة الماضية). وهكذا فان المحدِّدات البيولوجية ، كالانجاب واستمرار النوع ، لا تتجسد الاّ من خلال الاشكال **الاجتماعية** ، ولكن هذه الاشكال الاجتماعية اصبحت مهمة جداً خلال التاريخ بحيث اصبحت «فوق محدِّدة» sur déterminante : فاذا دخلت في صراع مع المحدِّدات البيولوجية ، فان هذه المحددات الاجتماعية هي التي تتغلب . فالجنس البشري هو الوحيد الذي تتصارع فيه الجماعات وتتعاون لأسباب اخرى غير الحاجة المباشرة للاستمرار المعيشي والانجاب. اما في ظاهرات الحروب والمذابح ، وسيطرة جماعة على اخرى ، فمن الواضح ان هناك محدداتٍ اخرى فاعلة غير المحدِّدات البيولوجية الصرفة (١٧).

حين قلنا ان هذه المحدِّدات هي «اجتماعية اي انها تنتج عن التنظيم الاجتماعي للمجتمعات الانسانية ، كأطر مفروضة لحياة البشر، كنا نقول ما هو جوهري ، ومع ذلك لم نعرض سوى مستوىً محصور، هو مستوى الواقعات الاجتماعية.

اما بالنسبة الى اساس المحدِّدات الاجتماعية ، فهناك تفسيران كبيران يتعارضان. الاول هو تفسير «ماركس» و «الماركسيين» الذين يرون ان اساسها يعود الى **علاقات الانتاج** ، اي العلاقات الضرورية المستقلة عن الارادة ، التي تربط الناس بعضهم ببعض ويتبادلونها خلال سيرورة pocessus انتاج وجودهم ، ونحب ان نضيف اليها مقولة لانغلز حول نفس المسألة وقد اهملت مما بعد ومؤداها : ان سيرورة تكاثر النوع ، وبنية علاقات القرابة (العائلية) تشكلان بدقة «علاقات انتاج» البشر.

بيروت (ز.ح)

الهـــــوامش

(١) Epistémologie : مبحث نقدي في مبادىء العلوم ، وفي اصولها المنطقية على المستويين : الداخلي والخارجي .

(٢). الاستعارة المغلقة اي المتضمنة لأسئلة تكون احتمالات الاجابة عنها محد دة بشكلة مسبق ،

(٣) راجع الصفحات من ٦٢ الى ٦٥ : فصل «نقد الموقف التجريبي المغالي» في الكتابة نفسه ، وكذلك من ص ٣٣٢ حتى ٣٣٥ ، حول الثنائيات المعرفية لباشلار، في المرجع نفسه.

وكذلك يراجع فهرست التعابير بالنسبة للكلمات التالية : التجريبية ، الايجابية ، والشكلية ، المثالية ، الفلسفة ، الخ...

(٤) في كتابه «المخيلة السوسيولوجية» الفصل الثالث.

(٥) راجع كتاب «مهنة عالم الاجتماع» من ص ١٣٧ حتى ١٤٠.

(٦) المرجع نفسه ص ١٤١ – ١٤٢.

(٧) الباحث المغالي في انطلاقه واعتماده على النظرية.

(٨) انظر كتاب: Imagination Sociologique, R. Mills, chp.3 p.129.

(٩) المقارنة مع الالسنية مفيدة جداً في علم الاجتماع، لفهم ظاهرات اخرى.

(١١) الاحيائية: مذهب حَيويّة المادة (أي الاعتقاد بان النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في وقت واحد)-المترجم-

(١٢) Essentialisme نظرية فلسفية تقر ان الجهور يسبق الوجود بعكس الوجودية (المترجم.)

(١٣) المصاب بعمى الألوان، والعاجز عن التمييز بين اللونين الأحمر والاخضر (المترجم).

(١٤) حول هذه النقطة نورد مقارنة كلاسيكية: اللغة بالنسبة للتفكير كالهواء بالنسبة لطيران العصفور، أي أنها ذات ضرورة مطلقة بالنسبة للتفكير، فهي توجه نحو سبلٍ محددة تتلاءم مع طبيعة بنيتها الذاتية، وينتهي بها الأمر الى اعاقة التفكير عن التفتح الكامل، كما الهواء يحمل العصفور ويشكل له الكابح في الوقت نفسه.

(١٥) الكاتب يقتبس هذه الرؤية عن جاك مونو، حيث اوردها في كتابة «الصدفة والضرورة» باريس، ١٩٧٠.

(١٦) اللاموس جنس حيوانات من فصيلة الفأريات.

(١٧) ان نظرية غاستون بوتول (اختصاصي بقضايا الحروب) المفسرةللحروب هي نظرية مشكوك بها كثيراً. فهو يعتقد ان الحروب ضرورية لاقامة التوازن بين الثروات الطبيعية والسكان، وهي تلتقي مع نظرية مالتوس التي قد هاجمها ماركس (انظر بهذا الخصوص كتاب الفريد سوفي: «مالتوس والماركسيون» والفكرة المركزية التي تقوم عليها هي «ان ولادة طفل اضافي تعني معدة جائعة جديدة». ولكن تعني يدين اضافيتين ايضاً. فاذا لم يتوفر له العمل، فليس ذلك بسبب «حاجة» أبدية، ولكن يعود ذلك الى البنية الاجتماعية التي لا تتصف بالخلود ولا بالحتمية.